قراءة في كتاب بؤس الرفاهية:
ديانة السوق وأعداؤها، لباسكال بروكنر

بقلم: عقوني أسيا

طالبة دكتوراه فلسفة القيم وإبستيمولوجية العلوم الإنسانية جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

مؤلَّف بؤس الرفاهية–الذي اضطلع عبد الله السيد ولد أباه بترجمته إلى العربية وصدر في جزأين عن مكتبة العبيكان سنة 2006 في حدود 302 صفحة– واحد من أفضل الكتب التي تسلط الضوء على مشكلات الواقع المعاصر.

لقد حاولت مؤلفته معالجة واحدة من أبرز الإشكاليات المتداولة اليوم ممثلة في الوجه المتناقض للرأسمالية[1] التي تفضي في النهاية إلى رفاهية بائسة على حد تعبيرها، كما حاولت تسليط الضوء عن المنبع الذي تتغذى منه، والسر وراء استمراريتها رغم سهام النقد اللاذعة الموجهة نحوها، وتقرّر أن التكالب على الرأسمالية والرأسماليين هو ما يمدها بالقوة لأنه ينبهها لعيوبها وثغراتها فتسارع لتصحيحها، ليصبح نقدها سببا مباشرا لبقائها وهذا ما يجهله المعارضون لها، وعن هذا تقول:"إن استمرارها يعود لأعدائها كما يعود لأشياعها فهو مستمر لأنه يهذب نفسه بفضل منتقديه فيعاد بعثه"[2]، فالنظام الرأسمالي يقوم بمراجعة ذاتية لنفسه من الداخل، وهو ما يساعد على تماسكه بل وعودته بقوة،غير أن الفضل لتنبيهه لمزالقه هي

---

[1] يطلق رأس المال من الناحية الفلسفية على معنيين: الأول منهما على كل ثروة من جهة ماهي جالبة لصاحبها دخلا؛ أما الثاني فيطلق على كل ثروة من جهة ماهي معدة لإنتاج ثروات أخرى.أما لفظ الرأسمالية فيطلق في أيامنا هذه على النظام الاجتماعي الذي يكون فيه العمال غير مالكين للثروات التي يستثمرونها. ويطلق أيضا على مذهب من يرى أن الفصل بين العمل ورأس المال أصلح وسيلة لزيادة الإنتاج، وتحقيق الرخاء والعدل، وتوفير الخير والسعادة. أنظر: جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، ج1، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1972)، ص ص 602-603.

[2] باسكال بروكنر: **بؤس الرفاهية: ديانة السوق وأعداؤها**، ترجمة: عبد الله السيد ولد أباه، (المملكة العربية السعودية: مكتبة العبيكان، 2006)، ص124.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الانتقادات الموجهة له وهو ما دفع ببروكنر إلى اعتبار أن نفد هذا النظام هو دعم له وليس عامل تهديم.

إن هذا النظام الرأسمالي الذي تصفه الكاتبة بالمتوحش يصنع نمطا وجوديا جديدا هو النمط الاستهلاكي حتى لكأن "الاستهلاك المحموم أصبح الهدف الأقصى للحضارة الغربية"، وغدا مفهوم الثقافة مرادفا للاستهلاك، وهوس الشراء الجنوني ما انفك يمثل رقيا ثقافيا. ولقد عالج العديد من الفلاسفة وعلماء الاجتماع إشكالية طغيان موجة الاستهلاك في المجتمع مابعد الحداثي ومنهم عالم الاجتماع الفرنسي جان بودريار(1929-2007) الذي يرى بأن الاستهلاك أصبح نمطا وجوديا يولد واقعا فائقا[3] يتم تصنيعه بالاعتماد على تكنولوجيا الإعلام والاتصال؛ وجيل ليبوفيتسكي الذي يرى بأن الإنسان المعاصر يعيش فراغا وجوديا بسبب الاستهلاك المفرط وطغيان ثقافة الرفاهية[4].

تستخدم بروكنر عبارات وازنة توّصفما تسببه هذه الموجة الاستهلاكية التي أصبحت تمس كل المجالات بما فيها الفن والتعليم ومن بين هذه العبارات: مخدوعو النعيم، معذبو الوفرة، الخلاص عن طريق الرخاء... إلخ؛حيث يرى المستهلكون في السوق والتجارة خلاصا جديدا يختلف عن الخلاص بالمفهوم المسيحي الذي كان في فترة عصور الظلام يشترى عبر صكوك الغفران، وتذهب الكاتبة إلى أن أباطرة المال أصبحوا اليوم ملوكا لزماننا وآلهة عصرنا الذين يسكنون مملكة الترف ويقتات الفقراء من موائدها، وهذا ما أسمته بنظرية الفتات.

إن الفقر أصبح عبودية العصر الحالي، فالسادة "عندما يمتلكون العمل، سيستولون في الآن نفسه على مصائر الأمة، وسينتهون إلى التحكم في الآخرين الذين يغدون في نهاية

[3] جان بودريار: **المصطنع والاصطناع**، ترجمة: جوزيف عبد الله، ط1، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ص 70.

[4] جيل ليبوفيتسكي وجان سيرو: **شاشة العالم:ثقافة– وسائل إعلام وسينما في عصرالحداثة الفائقة**، ترجمة: راوية صادق، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2008)، ص 281.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المطاف عبيدا عابثين"[5]. لقد أصبحت اللامساواة جزءا لا يتجزأ من وجودنا، ومحركا لمجتمعاتنا بعد أن كانت الرأسمالية تبشر بالنعيم ورفاهية وسعادة الجميع، فإذا "كانت هناك تباينات إيجابية تلهم المبادرة، فهناك لامساواة محبطة لأنها تبدو منقوشة في نظام الأشياء، في حين أن المجتمع السليم هو الذي يعطي للجميع فرصة لإثبات قدراته، ولا يصور أن الهوة بين الأعلى والأسفل غير قابلة للتجاوز"[6].

وتميز بروكنر بين فقير الأمس وهو البروليتاري، وفقير اليوم وهو البقية الباقية التي تمنعت على كل موجات الرفاهية، كما تميزبين كل من البخيل وهو المصاب بمرض الحرص على المال، والسفيه وهو المصاب بمرض تبذير المال، والذي يدخل في دوامة الاستهلاك الجارف، وبهذا يبرهن أنه لم يتخلص مما ينفر منه، ويؤكد الجميع في النهاية على خضوعهم لذات السلطان وهو المال..والجشع وهو الذي يحرص على تكاثر أرقامه، وعلى الربح وهو ما يتميز به الرأسمالي.

إن الرأسمالية تتناقض مع قيمها عندما لا تحقق وعودها ببسط الرفاهية والحرية للجميع، وهو ما ينبئ بالانتقال من التبشير بالنعيم الهستيري إلى التخويف من الوضع المرهقعلى حد تعبير بروكنر، هذا الوضع لا يؤمن للإنسان السعادة التي وعدته بها الرأسمالية، بل ينتهي به المطاف إلى ما سماه ليبوفيتسكي بـ"السعادة المتناقضة" الناجمة عن الاستهلاك المفرط كمرحلة جديدة من الرأسمالية؛ حيث تصبح ذهنية الاستهلاك أحد أهم مكونات الثقافة، في شكل رأسماليةمأزومة لايبحث الفرد المستهلك في ظلهاإلاعن سعادته الخاصة[7].

إن الرأسمالية–كما تصفها برونكر– تكرس للاستهلاك لا للملكية، فهي يوتوبيا رائعة وبائسة، غير أن هذه اليوتوبيا ليست صلبة لأن اللذة التي تحدثها قصيرة تضمحل عند

[5] باسكال بروكنر، مصدر سابق، ص28.

[6] المصدرنفسه، ص58.

[7] www.almustaqbal.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استعمالها، فتستنفد مضمونها، بل إننا-على حد تعبيرها-أصبحنا زبائنفي كل شيء، بما في ذلك الحب والدين والشغل والتربية، فالنزعة الاستهلاكية مرتبطة بالذات وبالرغبة في أن نكون نحن، غير أن هذه الرغبة الجامحة لا تشبع كل مطالب الإنسان فتصبح مجرد رغبة بائسة.كما تعترض بروكنر على تحميل الرأسمالية مسؤولية كل ما يحصل، فلا يمكن-حسبها-أن ننتظر منها ما لا تعرف القيام به، كأن ننتظر منها تحقيق غايات روحية وأخروية.

إن الانتصارالمفارقة للرأسمالية-كما تصفه- تلخصه عبارة"لقد فقد العالم المعاصر روحه..وبزغ زمن الفرد المتحكم الذي يخيره السوق بأن لا يفعل إلا ما يرغب فيه، ويطري أدنى ميوله"[8]. لذلك لا يمكن أن تكون الرأسمالية فاعلة ما لم تدعم بمنطق القيم، فالمجتمع لايمكن أن يكون سوقا فقط، والانتصار لا يكون بوفرة الانتاج والربح فقط.

إن بروكنربهذا المعنى تحاول أن تعيد الاعتبار للكفاءة بدل الإعلاء من معايير المردودية،كما تقرر هشاشة ما وصفته باليوتوبيا الأخيرة المتفائلة والتي تؤمن بأن السوق وسيلة تقرب البشر من خلال عملية التبادل.لأن المال وسيلة للاستعباد، ولا يمكن أن يكون شرطا وحيدا للحرية وإن كان أحد شروطها.

كما تبدع في وصف ما تدعيه الشركات الكبرىواصفة إياه بـ"شراهة الخير"، والمقصود بها الوظيفة التبشيرية التي تتبناها عبر إقناع السذج بخوض تجربة روحية من خلال مقتنياتها، قائلة "لم يعد يكف الرأسماليين الاستعلاء على الأسواق بل أصبحوا يستولون على مواقع الروح اللامادية، ويحلون رويدا رويدا محل المدرسة والأحزاب والروحانيات ليحددوا ما هو خير وما هو جيد"[9]. وهذا ما يظهر في شعارات بعض المنتوجات مثل دانون"تحول الإنسان إلى الأفضل"، نايك"تسعى لتهذيب النفس"....الخ.

[8] باسكال بروكنر، مصدر سابق، ص179.

[9] المصدر نفسه، ص 210.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بعدها تعرج الكاتبة على مشكلة فلسفية هامة وهي مشكلة الهوية التي ترى بأن ما يحددها اليوم هو الاستهلاك وشعارها"هويتي هي ما أشتري"[10]، وترفض-بالطبع- هذا المفهوم الجديد للهوية لأنه يجعلها بهذا الشكل متغيرة في حين أنها في الأصل ثابتة، لا تتغير بتغير ما نستهلكه أو ما يعرض علينا في الأسواق، فالهوية لا يمكن أن ترتبط بالموضة المتغيرة، لتنتهي إلى إعلان موقفها من الرأسمالية قائلة "نعم للرأسمالية، ولكن في حدودها المحددة، ولنترك نسق القيم مفتوحا حتى لا تنتصر قيمة من القيم على حطام القيم الأخرى"[11]، ذلك أن المال حسبها محرر من كل شيء إلا من نفسه، ولهذا فيجب إعادته إلى موقعه خصوصا وأن مجتمعاتنا أصبحت مشبعة إلى حد التخمة.

إن العداء للرأسمالية ومحاولة تجاوزها حسب بروكنر لا يكون بنقدها فقط، بل بالتوجه إلى بديل آخر يختلف عن عالم المنافع والحاجات مثل الحب، والشعر.."أي نحو كل ما يسمو بالإنسان وينتشله من حقارته المادية وهوسه القهري بالجمع واللم..يجب التحرر من الضرورة المادية بإيجاد مصادر أخرى للزهو ذات طبيعة ثقافية، وجمالية، وروحية"[12]. تماما مثلما يذهب إليه لوك فيري حينما يصف هذا الوضع بالدنيوية ونسيان المعنى أين نتجه لدورة الاستهلاك ونمارس التسوق إذا فشلنا في تحقيق أهدافنا من صنف: الجمالية، الثقافية، التربوي.. إلخ[13].

إن الافتتان بالمال-حسب بروكنر- ليس جريمة أو مرضا ولكنه متعة مؤسفة على حد تعبيرها إذا لم يتم موازنتها مع متع أخرى أكثر قيمة، لهذا يجب-برأيها- "إعادة الاعتبار لقارة

[10] المصدر نفسه، ص228.

[11] باسكال بروكنر، مصدر سابق، ص228.

[12] المصدر نفسه، ص ص 239-240.

[13] لوك فيري: **الإنسان المؤله أو معنى الحياة**، ترجمة: مُحَمَّد هشام، (المغرب: أفريقيا الشرق، 2002)، ص12.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الروح الضائعة والهروب من الضيق الوجودي"[14] لفك الخناق عن إنسان القرن الحادي والعشرين المرتبك، الذي لا يستطيع تجاوز علّته إلا بادراك مرضه، لأن الخطأ الحقيقي هو الجهل بالعلّة.

في الأخير يمكننا القول إن باسكال بروكنر قد سلطت الضوء على واحدة من أهم الإشكاليات التي تعاني منها مجتمعاتنا المعاصرة وهي طوفان الاستهلاك الذي مس جوهر الإنسان الروحي وحاول تحويله إلى مجرد مستهلك وسلعة كباقي السلع الأخرى، وهو ما انعكس سلبا على منظومة القيم الأخلاقية والروحية في ظل أحادية القطب القيمي الذي أصبح ماديا محضا في الوقت الذي أصبح كل شيء يقيم بمدى المشاركة في العملية الاستهلاكية، وأصبح مفهوم الرفاهية حكرا على المتع المادية، وهو ما دفع بروكنر إلى وصفها بـ"الرفاهية البائسة" لأنها لا تشبع الكيان الإنساني المركب.

[14] باسكال بروكنر، مصدر سابق، ص ص 244-246.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حوارات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com